

# العثمانيون الأوائل: ارتباك الهوية

## هل كُتب التاريخ العثماني بعد وقوعه؟

ينتمي الأتراك - في أصولهم الأولى - إلى أواسط آسيا، وهي البيئة التي شكّلت بداياتهم العرقية والثقافية قبل أن ينخرطوا في فضاءات أوسع، كان أبرزها العالم الإسلامي. ومع انتقالهم واختلاطهم بالعرب، لم يكن هذا الاحتكاك مجرد تماس جغرافي، بل تحوّل إلى تداخل عميق في اللغة والفكر والثقافة، حيث اكتسبوا من اللسان العربي مفرداته، ومن الحضارة العربية أدواتها التعبيرية، حتى أصبحت اللغة التركية نفسها حاملة لطبقات واضحة من التأثير العربي.

ورغم ما يبدو في ظاهر التاريخ من صراعٍ حاد بين الأتراك والصفويين، فإن هذا الصراع لا ينفى وجود أثرٍ متبادلٍ بين الطرفين في البنية الفكرية، خصوصًا في النزعات الدينية والتصوف، التي تشجّع بها كلا الطرفين بدرجات متفاوتة. وهذا التداخل يكشف أن التاريخ لم يكن صراعًا خالصًا بقدر ما كان شبكةً معقدة من التأثيرات المتبادلة، التي أعادت تشكيل الهويات في سياق سياسي يتجه نحو السيطرة على مناطق النفوذ، وفي مقدمتها بلاد العرب.

وفي هذا السياق، يبرز سؤال الهوية بوصفه سؤالًا مركزيًا في فهم النشأة العثمانية. فحين بدأ العثمانيون في التشكّل كقوة صاعدة، لم يكن أمامهم فقط تحدي البقاء العسكري في مواجهة بيزنطة، بل أيضًا تحدي تأسيس شرعية تاريخية وثقافية تُرشخ وجودهم كدولة. ومن هنا يمكن فهم توجههم إلى تبني عناصر ثقافية ولغوية ذات حضور رمزي قوي، وعلى رأسها الأسماء العربية، التي ارتبطت في الوعي الإسلامي بالشرعية الدينية والسياسية.

فلماذا يُسمّى مؤسس هذه الدولة بـ"عثمان"؟ ولماذا لم يحتفظ القادمون من أواسط آسيا بأسمائهم الأصلية؟ ولماذا تُستدعى الأسماء العربية تحديدًا، دون غيرها، في لحظة التأسيس؟ هذه الأسئلة لا يمكن التعامل معها بوصفها تساؤلات لغوية بسيطة، بل هي مدخل لفهم عملية أعمق تتعلق بإعادة تشكيل الهوية بما يخدم مشروعًا سياسيًا توسعيًا يتخذ من الدين مظلةً للشرعية.

إن الاحتماء بالثقافة لم يكن خيارًا عفويًا، بل كان وسيلة فعالة لإضفاء المشروعية على الحكم، خاصة في بيئة إسلامية واسعة. ومن هنا، فإن تبني الأسماء العربية، وإعادة إنتاج السرديات الدينية، يدخل ضمن استراتيجية بناء صورة الدولة "الغازية" التي تنصر الدين، وتستمد من ذلك مبرر توسعها.

غير أن هذه السردية تصطدم بإشكالية جوهرية، وهي غياب التوثيق المعاصر لنشأة العثمانيين. فالمصادر التاريخية تكاد تجمع على أن المعلومات المتعلقة بالقرن الأول من تاريخهم، خاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، تقوم في معظمها على روايات شعبية دُوّنت بعد ذلك بقرنين تقريبًا. وهذا يعني أن الأساس الذي بُنيت عليه صورة البدايات العثمانية ليس توثيقًا مباشرًا، بل إعادة صياغة لاحقة.

وهذا الغياب لا يقتصر على المصادر العثمانية، بل يمتد إلى غياب شبه كامل في مصادر الأمم المجاورة، فلو كانت تلك الجماعة تمتلك حضورًا واضحًا أو كيانًا راسخًا، لكان من المتوقع أن نجد إشارات أو توثيقًا عنها في المصادر الفارسية أو الهندية أو غيرها، وهو ما لا يظهر بالشكل الذي يدعم الرواية التقليدية.

أما المصادر البيزنطية، التي كانت الأقرب بحكم الاحتكاك المباشر، فقد ركزت على وصف الصراع العسكري، دون أن تقدم صورة واضحة عن أصول هذه الجماعة أو هويتها الأولى، مما يعمّق حالة الغموض بدل أن يبددها.

وفي المقابل، تظهر الروايات العثمانية المتأخرة بصورة أكثر اكتمالًا، حيث تُقدّم شخصية أرطغرل وولده عثمان ضمن إطار مثالي متماسك، يتضمن الوصايا، والعلاقات مع المشايخ، والارتباط بالدولة السلجوقية، وصولًا إلى تأسيس الدولة العثمانية. غير أن هذه الصورة، على تماسكها الظاهري، تظل محل تساؤل، خاصة مع غياب ما يؤكدها في المصادر المعاصرة.

ومن جهة أخرى، لا يمكن فهم صعود العثمانيين بمعزل عن السياق الذي كانوا يتحركون فيه. فالإمبراطورية البيزنطية، التي واجهتهم، لم تكن في حالة قوة، بل كانت تعاني من انهيار داخلي عميق؛ إفلاس اقتصادي، وضعف عسكري، وانقسامات دينية حادة، وتراجع عمراني واضح. وقد أسهم هذا التدهور في إتاحة المجال لقوى جديدة - كالعثمانيين - للتمدد على حسابها.

كما أن التحولات الاجتماعية داخل بيزنطة، والانقسام بين ثقافة النخبة الحضرية والثقافة الشعبية، أضعف من قدرتها على المقاومة، في وقت استطاع فيه العثمانيون استثمار نموذج مختلف، قائم على تعبئة جماعات مقاتلة مدفوعة بالغنيمة والامتيازات، وهو ما منحهم قدرة أكبر على الحشد والتوسع.

ولم يكن هذا التحول مجرد تفوق عسكري، بل كان انتقالًا في طبيعة الدولة نفسها. فالنظام العسكري العثماني لم يشبه النمط الروماني التقليدي، بل قام على بنية مختلفة، تبدأ من نخبة إقطاعية وتنتهي إلى تشكيلات عسكرية مثل الإنكشارية، إضافة إلى جماعات الغزاة غير النظاميين الذين شكّلوا رافدًا أساسيًا في التوسع.

وقد انعكس هذا الاختلاف حتى على بنية الدولة العمرانية والإدارية، كما يظهر في نموذج قصر "توبكابي"، الذي لم يتبع النمط الروماني، بل جاء أقرب إلى نموذج المدينة المتنقلة، وهو ما يعكس جذورًا ثقافية مختلفة لم تنصهر بالكامل في النموذج الحضاري السابق.

وفي المحصلة، فإن نشأة العثمانيين لا يمكن قراءتها من خلال السرديات التقليدية وحدها، بل ينبغي التعامل معها بوصفها عملية تاريخية مركبة، اختلط فيها الواقع بالتصوير، والتوثيق بإعادة البناء، والهوية الأصلية بالهوية المصنوعة. وهو ما يجعل كثيرًا من المسلمات المتعلقة ببداياتهم بحاجة إلى إعادة نظر، بعيدًا عن الروايات الجاهزة، واقتربًا من قراءة نقدية تتعامل مع التاريخ بوصفه بناءً يحتاج دائمًا إلى تفكيك.

1. شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن سويدان، ط3 (بيروت: دار ابن كثير، 1990).
2. عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، ط2 (بيروت: دار النفائس، 2011).
3. عبدالعزيز محمد الميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء (الرياض: دن، 1983).
4. مصطفى أرمغان، المدينة التي بنت الإمبراطورية العثمانية: إسطنبول (2007).